

تحليل النصوص الأدبية مدخل منهجي ييداغوجي

محمد مساعدي

النص الأدبي نسيج من العلاقات المتشعبة، فهو يخفي عوالم وأسرار جديرة بالاكشاف. وكلما كانت هذه العوالم والأسرار مثيرة لاهتمام القراء في مختلف الأزمنة والأمكنة إلا واكتسب النص مزيدا من الحيوية والأصالة. ومن هذا المنطلق فالنص الأصيل، حتى وإن كان موعلا في القدم، يستهدفنا ويسعى إلى أن يوقظ في داخلنا ردود فعل. ولكي نكون مؤهلين للتفاعل معه، وقادرين على استخلاص المعطيات الجديرة بالدراسة وعلى بناء تحليل فعال وتأويل متماسك، يلزمنا التسلح بمعارف ثقافية وكفاءات نقدية ومهارات في التنظيم المنهجي والبناء الحجاجي.

1. المعارف الثقافية

تلعب هذه المعارف دورا أساسيا في توضيح الرؤية وتوسيع المدارك، فكلما اغتنت الموسوعة الثقافية للطالب إلا وازدادت حظوظ تفاعله مع النصوص وتَقَوَّت قدرات إدراكه لأبعادها الدلالية والرمزية. وإذا كانت الموسوعة الثقافية مجالا منفتحا، يغتني ويتشعب بحسب اهتمامات الأفراد وميولاتهم، فإن هناك معارف لا يمكن لدارس الأدب العربي أن يستغني عنها وفي مقدمتها:

”
النص الأصيل، حتى وإن كان موعلا في القدم، يستهدفنا ويسعى إلى أن يوقظ في داخلنا ردود فعل. ولكي نكون مؤهلين للتفاعل معه، وقادرين على استخلاص المعطيات الجديرة بالدراسة وعلى بناء تحليل فعال وتأويل متماسك، يلزمنا التسلح بمعارف ثقافية وكفاءات نقدية ومهارات في التنظيم المنهجي والبناء الحجاجي“

- العناية بتاريخ الأدب العربي لمعرفة تطور الأشكال الأدبية وتأثير السابق في اللاحق؛

- الإلمام بالأشكال التعبيرية وبخصوصيات الأنواع الأدبية؛

- معرفة المرجعيات الكبرى للكتاب (أساطير- مرجعيات تراثية- مرجعيات معاصرة- أدب عالمي- فكر إنساني...);

- اكتساب معارف لغوية تتعلق بالنحو والمعجم والتركيب والدلالة...؛

- اكتساب معارف اجتماعية وتاريخية وبيوغرافية ونفسية وفلسفية، تمكن من إدراك المكونات المشكّلة لنسيج النص وفهم أبعاده وامتداداته وعلاقته بسياقه...

ورغم الدور الفعال الذي تلعبه العلوم الإنسانية في النقد الأدبي، فإنه يجب استثمارها بطريقة تمكن من بناء تحليل متناسق يبرز الخصائص الجمالية والمظاهر الموضوعاتية للنصوص ويكشف أبعادها الدلالية والرمزية. أما إذا انجرف الدارس مع هذه العلوم إلى أبعد الحدود ولم يتقيد بصلب الموضوع فإنه قد ينتهي إلى إنجاز دراسات يغلب عليها الطابع الاجتماعي أو النفسي أو التاريخي أو الفلسفي، وهذا النوع من الدراسات يجعل الدراسة الأدبية في خدمة العلوم الإنسانية عوض أن يجعل العلوم الإنسانية في خدمة الدراسة الأدبية. لتفادي هذه المنزقات يجب الإصغاء لنبض

النصوص المدروسة وتفادي الأفكار المسبقة والآراء الشائعة الراسخة في أذهاننا وغير الموثوقة سواء عن المؤلفين أو المؤلفات أو المذاهب الأدبية، أو العصور والثقافات... كما يجب أيضا تحاشي الوقوع في شرك إسقاط المعارف المرتبطة بهذا العلم أو ذاك على النصوص المدروسة بطريقة تبعدنا عن صلب الدراسة الأدبية. إن التحكم في هذه المعارف بطريقة فعالة من شأنه أن يفضي إلى استثمارها لتسويغ هذا التأويل أو ذاك، وأحيانا لجعلها تمهيدات تقتضيها الدراسة قصد الغوص في أعماق النص من هذه الزاوية أو تلك، أو فتح مسارات ومسالك جديدة من شأنها إغناء القدرات التحليلية.

2. الكفاءة النقدية

ترتبط الكفاءة النقدية بمهارات الدارس في تحليل النصوص، وهذه المهارات تركز على عدّة من المفاهيم المرتبطة بالمعارف النظرية والنقدية التي راكمها مسار نظرية الأدب والنقد الأدبي وتمثّلها الدارس نظريا وتطبيقيا. من ذلك مثلا: المفاهيم المرتبطة بالبلاغة والدراسات الأسلوبية والشعرية والسيميائية والسردية والدراماتولوجية... أو المقولات الأدبية الكبرى من قبيل: السجلات الوجدانية، والغنائية، والرثائية، والملحمية، والدرامية، والهزلية...

الحقل المعجمي أو الحقول المعجمية، وإبراز مستوى اللغة من حيث بساطة المعجم وتعقيده وطابعه التقريري أو الإيحائي، وتحديد نوعية السجل الدلالي: غنائي، ملحي، أسطوري...

✓ **مقومات بنائية وتركيبية:** تتعلق من جهة بالاهتمام بأجزاء النص (العنوان - العناوين الفرعية والاستهلاطات والاقتراسات إن وجدت...). وتتعلق من جهة ثانية بنوع الجمل (اسمية، فعلية، خبرية، إنشائية...)، وطبيعة الروابط، والتقديم والتأخير، والصفات والنعوت، وصيغ الأفعال (الأزمنة، الأفعال المزيدة ودلالاتها، الصيغ المبنية للمعلوم أو للمجهول...)، وطبيعة الأسماء (نكرة، معرفة، علاقة الأسماء بالصفات...)، ولعبة الضمائر... الخ

✓ **مقومات تخيلية وتصويرية وأسلوبية:** تعلق بالاستعارات والمجازات والطباقات والمشاهد الوصفية والتخييلية (وصف الأمكنة والشخصيات والعوالم الافتراضية والديكور خصوصا في النصوص الروائية والدرامية)، وإبراز طبيعة هذه الأوصاف (هل هي ذات طابع واقعي أم خيالي أم غرائبي أم كاركاتوري ساخر؟)؛ وتحديد نوعية الأساليب المستعملة في النص (نفي، نهي، استفهام، تعجب... - أسلبية، تعدد اللغات...) - طبيعة الخطاب (سرد، حوار، مونولوج، تذكرواسترجاع، استشراف...)

وتكمن أهمية الكفاءة النقدية في كونها تتيح للدارس تبني منهجية متماسكة تركز على مفاهيم واضحة المعالم، وهذه المنهجية هي التي تعصمه من السقوط في شرك الشرح الإطنابي الذي يكتفي بإعادة صياغة النص المُحكّم التأليف بطريقة رديئة أو أقل جودة .

والمنهج كما هو معلوم ليس قالبا جاهزا نفرغ فيه هذا الموضوع أو ذاك فنعمل على تمطيطه أو تقزيمه ليأتي على مقاسه، وإنما هو شبكة من المفاهيم العلمية والخطوات الإجرائية القابلة للتطور والتعديل والتناسل، ومن ثمة التكيف مع خصوصيات الموضوع المدروس. وهذه المفاهيم والخطوات تراهن على بناء تأويل متماسك وإنتاج قراءة واعية بمنطلقاتها وأهدافها من خلال الاستناد على آليات منطقية من قبيل الملاحظة والتصنيف والاستنتاج والاستدلال والاستقراء والمقارنة والتعليل. ولتحقيق هذا الرهان يتعين على المحلل مراعاة جملة من المقومات يمكن حصرها فيما يلي:

✓ **مقومات صوتية:** تتعلق بالعروض والتنغيم في النصوص الشعرية بالخصوص (لعبة الأوزان وجمالية الإيقاع والقوافي وما يرتبط بها من ظواهر من قبيل: التضمين والتدوير والجناسات والأسجاع والموسيقى الداخلية، المتعلقة بتناغم الأصوات، وشكل القصيدة وطريقة توزيع أبياتها...)

✓ **مقومات معجمية:** تتعلق باستخلاص

وتجدر الإشارة إلى أن الاكتفاء بمجرد هذه المقومات يجعل التحليل قاصرا، فاستخلاصها مجرد خطوة لتحديد المنظور القرائي، وهذا المنظور هو الذي يتحكم في طريقة انتقاء المعطيات المدعمة بأمثلة ومن ثمة تنظيمها بطريقة تضي التناسق والانسجام على التحليل وتجعله فعالا ومقنعا.

3. التنظيم المنهجي والبناء الحجاجي

الإقناع رهين بمدى قدرة الطالب على فرض حضوره وشد انتباه القارئ. وهذا الأمر غير مرتبط فقط بأهمية النص الذي يدرسه وإنما أيضا بطريقة تحليله له. وإذا كانت فرضية التأويل تفتح النص على قراءات متعددة، فإن الانطلاق من المعطيات النصية يمكن من استخلاص المنظور القرائي وفق ما يقتضيه السياق، كما أنه يعصم التأويل من الوقوع في شرك الإسقاط والتعسف ويجعله مرتبطا بصميم النص. وبما أن حسن المنطلق هو مفتاح الإدراك الجيد والتنظيم المحكم والتحليل السليم، فإنه يجب مراعاة جملة من الشروط لكسب هذا الرهان في مقدمتها:

- القراءة التأملية لكل من النص والسؤال لتحديد المطلوب بدقة متناهية؛
- قراءة النص عدة مرات وبكثير من التركيز لاستخلاص المعطيات الأولية للتحليل وتدوينها في ورقة التسويد؛

- وضع تلك المعطيات تحت المجهر والتأمل فيها قصد استخلاص المنظور القرائي المناسب.

وتكمن أهمية المنظور القرائي في كونه يشكل منطلقا لصياغة تصميم يحدد استراتيجية التحليل. فإذا اختار الطالب منظورا قرائيا يتبنى الدراسة التحليلية الخطية (analyse linière) فإن استراتيجية التحليل ستتخذ مسارا أفقيا يلتزم بتحليل المعطيات النصية الدالة الواحدة تلو الأخرى قصد استخلاص مقومات النص الجمالية وأبعاده الدلالية والرمزية. أما إذا اختار الدراسة التركيبية (commentaire composé)، فإن استراتيجية التحليل ستتخذ مسارا عموديا يركز على قضايا موضوعاتية أو إيقاعية أو تصويرية أو رمزية أو أسطورية أو بارودية... ويعالجها انطلاقا من النص بمجمله دون تقيد بمبدأ الخطية.

وعلى العموم فإن الدراسة التحليلية الخطية تناسب تلك النصوص التي يطغى عليها التدرج (التدرج في سرد الأحداث، أو في وصف المشاهد، أو في التوتير المتصاعد للحالات النفسية، أو في عرض الأفكار والاستدلال على صحة المواقف خصوصا في النصوص الحجاجية...). ويتخذ التصميم في هذه النصوص بدوره طابع التدرج من المقدمات إلى النتائج، أو من الخاص إلى العام، أو من العام إلى الخاص...

الأدبي والتاريخي أو مرتبطة بالجنس الذي ينتمي إليه أو التيار الجمالي الذي يندرج ضمنه.

- وحين يتعلق الأمر بدراسة مقطع مستخلص من نص أدبي أو حجاجي، يمكن إبراز خصوصية هذا المقطع وتوضيح سياقه ضمن العمل ككل بحسب ما تقتضيه الدراسة... الخ

وعموما فإن رهان المدخل هو الإيجاز والتركيز والتناسق ومراعاة حسن التلخيص لاستدراج القارئ إلى أهم القضايا وأبرز الإشكاليات التي سيعالجها التحليل.

التحليل: ليس التحليل مجرد شرح استيعادي يُكرَّرُ بطريقة رديئة أو أقل جودة، ما قاله المؤلف بطريقة جيدة، وإنما هو إبراز للكيفية التي تشكّل بها النص والتي أهلتها لخلق وَقَعٍ متميز. وهذا يقتضي التساؤل عن الكيفية التي أنتج بها النص هذا الوقع أو ذلك، والبحث عن سر جمالية هذه الصورة أو تلك أو جودة هذا الأسلوب أو ذاك. وبما أن الامتدادات الدلالية للصور والأساليب تتجاوز أحيانا ظاهر النص وتوحي بأشياء مرتبطة بلا شعور المؤلف أو النص، فإن الاقتصار على جرد الأساليب والتراكيب والصور يدل على قصور في الفهم وفي مهارات التحليل التي تقتضي الغوص في أعماق النصوص والكشف عن خفاياها.

أما الدراسة التركيبية فإنها تناسب أكثر النصوص المتشظية التي يطغى عليها التجريب بمتاهاته الدلالية وإيحاءاته الرمزية ذات الأبعاد المتعددة والامتدادات المتشعبة، ويغلب عليها التكرار الدال والبناء الدائري... وبما أن هذه النصوص تعصف بما هو منطقي فإن ترويضها وإخضاعها لعقلانية التحليل تقتضي معارف وقدرات ومهارات خاصة تُمكن من تجاوز سطحها المشاغب والنفاذ إلى أعماقها لإدراك الانسجام المتواري خلف جمالية الشكل الفوضوي الخلاق.

وتحتاج كل من الدراسة التحليلية الخطية والدراسة التركيبية إلى مدخل وخاتمة يراعى فيهما مبدأ توازن الأجزاء:

المدخل: يجب أن يكون المدخل قصيرا ومركّزا، فهو ليس وصفة جاهزة تصلح لجميع الدراسات، وإنما هو افتتاح يُحدِّدُ المنظور القرائي ويُستخلص من المعطيات التي تم تسجيلها وتنظيمها في ورقة التسويد:

- يمكن على سبيل المثال استخلاص إشكاليات مرتبطة بتلك المعطيات وصياغتها بطريقة محكمة تمهد للدخول في صلب الموضوع.

- يمكن استثمار الموسوعة الثقافية للتمهيد لدراسة النص بالحديث عن معطيات بيوغرافية أو عن قضايا مرتبطة بسياقه

يمكن للتحليل أن يكون مشكلاً من فقرات، بحيث تُخصَّص كل فقرة لمعالجة فكرة واحدة ودَعَمَها بالحجج والأمثلة النصية وبالبراهين الإقناعية. ويمكن أيضاً لكل فقرة في التحليل أن تكون مخصصة لدراسة مقطع شعري واضح المعالم أو فقرة من نص سردي أو حجاجي أو درامي، كما يمكن للدارس أن يُقسِّم النص المدروس إلى وحدات دالة شريطة الإشارة إلى ذلك في المقدمة. وتجدر الإشارة إلى أن هذا النمط من التقسيم عادة ما يكون شائعاً في الدراسة التحليلية الخطية.

ويمكن أيضاً إنجاز التحليل اعتماداً على عناوين أساسية وفرعية خصوصاً حين يتخذ هذا التحليل طابعاً تركيبياً يعالج القضايا النصية في مجملها دون التقيد بخطية النص.

الخاتمة: تخصص الخاتمة لعرض حصيلة الدراسة، من خلال تلخيص القضايا الكبرى التي تناولها التحليل أو العمل على تركيبها. ويمكن أيضاً أن تكون مناسبة لعرض وجهة النظر الخاصة لاسيما حين يتعلق الأمر بنصوص حجاجية ذات طابع إشكالي. كما يمكن إضفاء الطابع الانفتاحي عليها من خلال جعلها مُشرعة على أسئلة جديدة...

4. معايير التقويم

يرتكز التقويم على مجموعة من المعايير أهمها:

✓ **معييار الكيف:** لا يتم الحكم على أهمية الدراسة بكم الأوراق المكتوبة، وإنما بمعايير نوعية تختزلها الحكمة الشهيرة لمونطين «عقل المهارة والتدبر أفضل من عقل الحفظ والتذكر» (Mieux vaut une tête bien faite) و«qu'une tête pleine». وهذا معناه أن العبرة ليست في استحضار الأفكار فقط، وإنما أيضاً في أساليب توضيحها وطرائق تنسيقها ومهارات الإقناع بفعاليتها. وهذا يستدعي الاحتراز من الحشو والتكرار، والاستثمار المحكم للروابط المنطقية، ومراعاة علامات الترقيم...

✓ **معييار العمق والمصدقية:** يكتسب التحليل مصداقيته العلمية كلما تمكَّن الطالب من تجاوز سطح النص المدروس وغاص في أعماقه لاستكشاف دلالاته الخفية وبناء موضوع متماسك خال من التناقض ومن المعلومات الخاطئة. وترتبط المصدقية أيضاً بالاعتماد على الشواهد والأمثلة لتدعيم فكرة أو تعزيز موقف، وكذا بتفادي أحكام القيمة والآراء الشخصية غير المدعمة بما يكفي من الحجج.

✓ **معييار الأصالة:** يركز هذا المعيار على المهارات الخاصة في التحليل؛ من هذه

- مقالة في النقد، غراهام هو، ترجمة: محيي الدين صبحي، مطبعة جامعة دمشق، 1973.
- مقدمة في نظرية الأدب، تيري إجلتون، ترجمة أحمد حسان، نواراة للترجمة والنشر، الطبعة الثانية: 1997.
- النظرية الأدبية الحديثة، آن جفرسون وديفيد روبي ترجمة، سمير مسعود، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1992.
- النظرية الأدبية المعاصرة، رمان سلدن، ترجمة وتقديم جابر عصفور، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى 1991.
- نظرية اللغة الأدبية، خوسي ماريا بوثيولو إيفانكوس، ترجمه عن الإسبانية، حامد أبو أحمد، سلسلة الدراسة النقدية، دار غريب للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى: 1991.
- Dissertations Littéraires générales, ouvrage collective sous la direction d'Yves BAUDELLE, deuxième édition, EDITIONS ARMAND COLIN, PARIS, 2005.
- Introduction aux méthodes critique pour l'analyse littéraire; ouvrage collective sous la direction de Daniel Bergez, bordas, Paris, 1990 .
- L' explication de textes à l'orale des concours, méthode et exercices corrigés, Elisabeth RAVOUX RALLO et Sylvie GUICHARD, deuxième édition, EDITIONS ARMAND COLIN, PARIS, 2006.
- L'explication de textes littéraires, ouvrage collective sous la direction de Paul RENARD, EDITIONS ELLIPSES,
- Pratique de l'explication littéraire, P. THEVEAU et J. LECOMTE, deuxième édition, EDITIONS ROUDIL, PARIS, 1978.

المهارات ما يرتبط بالعمق (الاستثمار الفعال للمفاهيم والمعطيات النظرية، والتدبير الأمثل للآليات الحجاجية والقدرات الإقناعية، وتجنب الإسقاط...)، ومنها ما يرتبط بالشكل (سلامة التعبير، والعناية بمقروئية الخط وبالتوزيع المحكم للفقرات...)

مصادر ومراجع

- «تحليل الخطاب الشعري البنية الصوتية في الشعر»، محمد العمري، الدار العلمية للكتاب، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء ط 1، 1990.
- البنيوية في الأدب، روبرت شولز، ترجمة حنا عبود، منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- جان كوهن «بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمد الوالي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، 1986، البيضاء،
- جدلية الخفاء والتجلي، كمال أبو ديب دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى: 1979.
- الشعرية بين المشابهة والرمزية، أحمد الطريسي أعراب، شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط (بدون سنة طبع).
- الغائب: دراسة في مقامة الحريري، عبد الفتاح كيليطو، دار توبقال للنشر الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1987.
- الفكر النقدي الأدبي المعاصر: مناهج ونظريات ومواقف، حميد لحمداني، منشورات مشروع البحث النقدي ونظرية الترجمة، بروتارس3، مطبعة أنفو برانت، فاس، الطبعة الأولى، 2009.
- في الشعرية، كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة الأولى: 1987.
- المرايا المحدبة، عبد العزيز حمودة، سلسلة عالم المعرفة، عدد 232، أبريل 1992.